الفصل الثالث

الحضارة العربية الإسلامية

أذعن نطاقٌ عريضٌ ومتنوعٌ من الدول لحكم العرب إبان فتح المغاربة لأسبانيا في عام 711 م وهو ما سنتناوله في الفصل القادم حيث امتد تأثير الإسلام ليتجاوز حدود الإمبراطورية الرومانية إذ أنه بالإضافة إلى كل من أسبانيا وشمال أفريقيا، فقد امتد وقع الإسلام إلى بلدان في الشرق لم تتاثر قبَلاً بفترة السلام الروماني.

وقد أجبرت المشاكل الإدارية والحملات العسكرية الحكام الجُدد الذين أخذوا على عاتقهم مهمة إرساء قواعد النظام والتوافق عن أن يأخذوا بعين الاعتبار الفرص التي واتَتْهم للتوسع الثقافي.

وتجدر الإشارة أنه بإرساء دعائم السلام والوحدة، كان العرب عن حق يُرسون قواعد الحضارة الإسلامية العظيمة التي جسدت بقيامها الحلم القديم لـ «الإسكندر» من دمج الشرق بالغرب ومن ثَمَّ مزج حضارتي العالمين الشرقي والغربي، وقد حصد

المسلمون جنبًا إلى جنبٍ مع معظم العالم ثمار الوحدة التي غرس هذا الفاتح اليوناني ذو البصيرة بذورها من قبل في منطقة مترامية الأطراف تمتد من مصر إلى الهند.

خطّط «الإسكندر» قبل وفاته أن يجعل من اللغة اليونانية السهلة لغة عالمية، وقد حَذَا العرب حذْو «الإسكندر» في تفكيره إذ جعلوا العربية اللغة السائدة في المنطقة من الهند إلى أسبانيا، وقد تقلد العرب مناصب الحكم والإدارة في كل البلاد التي فتحوها، بيْد أنهم نتيجة لقلة أعدادهم قد جعلوا العاملين في الدوواوين من المدرَّبين على النطق بالعربية، ومن ثم أضحت لغة الفاتحين اللغة المستخدمة في كل من البلاط الملكي والأعمال الإدارية وما لبثت أن أضحت أيضا اللغة المستخدمة في التعليم الجامعي.

obeikan.com

2

نعمت دولة الإسلام للمرة الأولى في التاريخ بنعمة السلام في ظل لغةٍ واحدةٍ وحكمٍ واحدٍ سادها تحت رعاية الله تعالى؛ إذ تحولت الطاقات البشرية المختلفة لقنوات تصُب في بوتقة الرخاء والتقدم وذلك بدلاً من إهدارها في حروب ضَروس سِجال.

بزغ فجر الحضارة والتكنولوجيا الإسلامية في مدينة بغداد التي كانت قد شُيِّدت حديثا؛ هذه المدينة التى صارت فيما بعد نموذجًا للحضارة المدنية والتى بدأت تشق طريقها في كل حدْب وصوْب في أرجاء العالم الإسلامى، وبالإضافة إلى ذلك فقد وقع اختيار المسلمين عليها لتكون عاصمة الدولة الاسلامية نظرًا لما تتمتع به من موقعٍ متميزٍ يُطل على ضفاف نهر دجلة.

وعلاوة على ذلك كله، احتلت بغداد مكانةً تجاريةً سامقةً لا مثيل لها؛ وذلك نتيجة لتحكمها في جميع القنوات المائية في كل من دجلة والفرات جنبًا إلى جنبٍ مع موقعها الجيوغرافي المتميز الذي يربط طرق القوافل التجارية في كل من الهند

والفرس والقسطنطينية والأسكندرية، ونعم التجار بنعمة السلام والحماية تحت ظل الإسلام، وهذا ما جعلهم يتنقلون بأمان بين الهند ومصر.

وهنا يجدر القول أن هؤلاء التجار كانوا يقومون بدفع الجزية للسلطات العليا في بغداد، ومن ثم ما لبثت المدينة أن بزغ نجمها إذ بدأت طبقة جديدة وثرية من التجار في الظهور حيث حاز بعضهم ثروات طائلة؛ وقد حظت هذه الطبقة من التجار بتأييد واستحسان الحكام والقرآن إذ أن الرخاء الذي نعموا به قد بلغ مداه أفقر المواطنين في المدينة.

وجّه الخلفاء جُل اهتمهاهم إلى الزراعة وفق المعايير العلمية، ومن ثَم فقد تم تجديد وتوسيع نطاق نظام الري القديم والذي قد جعل من بلاد الرافدين سلة الخبز للعالم؛ وكان من جراء إصلاح وتجديد نظام الري هذا أن تحولت بغداد إلى أرضٍ خصبةٍ ذات حدائق غناء تثير إعجاب الناظرين.

وقد أُرسَت قواعد العدل العملية والتي بدت في أول أمرها غير مصقولة؛ وهي القواعد التي أثمرت فيما بعد عن الشريعة الإسلامية وكان بمقدور أبسط المواطنين أن يصلوا إلى القاضي ليبثوا إليه شكواهم، وهو ما كان يفعله الخليفة أحيانًا، وقد ساعد نظام الضرائب الجديد والذي كان أكثر إنصافًا وعدلاً من نظيره الروماني في استقرار الاقتصاد في بغداد والتي سادت أرجاؤها طفرةً ومناخًا من المغامرة والإقدام، وقد تضمن كتاب «ألف ليلة وليلة» صورًا عن هذه الروح التي اتسمت

بالمثابرة حيث صور الكتاب بوضوح الحياة في بغداد أثناء حكم «هارون الرشيد» وذلك بغض النظر عن سذاجة التصوير.

وكان هذا الحاكم الفذ والذي عُد حكمه عن حق فترة إشراق ماديّ عظيم في بغداد قد خلفه ابنه «المأمون» والذي ظل متربعًا على سُدة الحكم لنحو عشرين عامًا، إذ امتد حكمه من عام 813م إلى عام 833 م وكان في عهد «المأمون» أن بدأت الأنشطة العلمية تدلي بإسهامات غاية في الأهمية في الحضارة العالمية.

ولابد أن نضع نُصب أعيُننا هذه الظروف الجغرافية والعِرقية التي كانت سائدةً في بغداد وما حولها في تلك الآونة، والتى مهَّدت لنهضة الثقافة والعلوم هناك؛ إذ ظلت بغداد لقرون عدة قبل فتحها على يد العرب جزءًا من الإمبراطورية الفارسية الحديثة والتي كانت تحت إمرة الأسرة الساسانية والتى هُزم آخر حكامها «يزدجرد الثالث» على أيدى العرب حيث تُوفى في وقت لاحق في منفاه.

وكان «كِسرى»، جدُ «يزدجرد الثالث»، أحد المعجبين بالحضارة الرومانية الإغريقية والتى لطالما ظلت مهملة تحت الحكم الساسانيين، ولذا فقد عمل طوال فتره حكمه على إحياء وإعادة نقل هذه الثقافة إلى دولة الفرس، ومن ثَم، فقد فتح أبواب قصره لهؤلاء الفلاسفة الذين فروا من أثينا إبَّان غلق مدارسها على يد الإمبراطور «قسطنطين» وتم تأسيس مركز طبيّ متكامل بمدينة جندي شابور والتى لا تبعد كثيرًا عن مدينة بغداد الجديدة والذي قام «كسرى» بتوسعته فيما بعد والترحيب

فيه بالمنفيين الإغريق القادمين من أثينا والأسكندرية بالإضافة إلى المسيحيين النساطرة الذين كانوا قد نُفوا من سوريا.

لقد كان «كسرى» رجلاً طموحًا وعلى دراية بالتاريخ، ولذا كان حلمه الأكبر أن ينشئ مركزًا تعليميًا بمدينة جندي شابور على غرار هذا المركز القائم بالأسكندرية؛ ومن ثم، استطاع أن ينقل كتب «جالينوس» الذي يعد أعظم الأطباء اليونانيين قاطبة، وذلك بالاعتماد على نسخ المنهج التعليمي الذي كان معمولاً به في مدينة الأسكندرية، وعلى جانبٍ آخر كان من جراء ازدهار المركز الطبي الذي شيده ووسّعه آنفًا أن تم تشييد مستشفى جديدة لتعمل في خدمته وعلاوة على هذا كله فقد تم إنشاء كلية خاصة بعلم الفلك إلى جانب مرصد فلكي في المدينة التي ما لبثت أن نقل إليها منهج علم الرياضيات.

احتلت مدينة «جندي شابور» جراء تواجد هذه المباني التعليمية والطبية على أراضيها مكانة عالية لدرجة أنها جاءت في المرتبة الثانية بعد متحف الأسكندرية، وكان في هذه المدينة أن تم تنحية اللغة اليونانية جانبًا لتحل مكانها اللغة السريانية، وإضافة إلى ذلك فقد تم ترجمة النصوص الكلاسيكية الإغريقية إلى ذياك اللغة، وعلاوة على ذلك فقد ولى العلماء من مختلف الأجناس والأديان وجهم صوّب ذلك المركز الثقافى؛ وهو ما حَدَا بالمدينة أن تصبح أعظم دار للفكر الفلسفي والعلمي على مستوى العالم، وفى ظل تلك الأجواء الحضارية كانت الأفكار الإغريقية واليهودية

والمسيحية والسورية والهندوسية والفارسية يضرب بعضها ببعض بصفة دائمة.

وهكذا، فقد تم إعداد المنصة التي سوف تكون منبرًا تزدهر من عليه الحضارة الإسلامية.

obeikan.com

obeikan.com

3

لعبت الحضارة الفارسية دورًا كبيرًا في إشعال حماسة العرب وزيادة شغفهم بتحصيل العلوم وكان علماء الفرس في بلاط «هارون الرشيد» قد أقاموا بالفعل نوعًا من الدمج الثقافى بين بغداد وجندي شابور في الوقت الذى تربع فيه «المأمون» على سُدة الحكم في عام 813 م؛ وهو الحدث الذي عُد لحظة مثيرة في تاريخ الحضارة.

ولم يكن «المأمون» عربيًا قُحا إذ كانت والدته وزوجته من أصول فارسية، وإلى جانب هذا فقد تولى مهام رئيس الوزراء خلفًا لرجلٍ فارسي الأصل، وقد تجلى نموذج التقوى في الإسلام بجدارة في الخليفة «المأمون» لدرجة أن خصومه قد لقّبوه بـ «أمير غير المؤمنين» وقد سخر «المأمون» أفكاره وخيالاته وأهوائه في خدمة العلم المتراكم من بلاد فارس القديمة ومن اليونان ذي الديانة الوثنية.

وانفتل قرن ونصف من الزمان بعد وفاة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)

والخلفاء يتعاقبون على عرش الدولة الإسلامية غير أن أيّا منهم – سوى «هارون» و«المأمون» – لم يولِ اهتمامًا بالتعليم اليوناني حيث كانت المنح التعليمية في العالم الإسلامي في هذه الآونة مخصصة لدراسة اللاهوت والفقه والفنون العملية للجيوغرافيا جنبًا إلى جنبٍ مع دراسة علم ملاحة الصحراء.

وجَه «المأمون» الدعوة للعلماء من جميع أنحاء شرق آسيا إلى بلاط حكمه لدرجة أن زاحم الفرس والإغريق والأرمانيون العرب، كما لاقى كل من اليهود والمسيحين نفس القدر من الترحيب الذي لاقاه المسلمون، وقد انكبّ هؤلاء العلماء على ترجمة وتصنيف الأعمال العلمية من اللغتين الإغريقية والأرمانية، وكان هؤلاء العلماء يتقاضون أجورًا هائلة إلى جانب المكانة الاجتماعية العظيمة التي كانوا يحظون بها.

ونحن نقف الآن أمام نموذجٍ متقدٍ بالحماسة تجاه التعليم؛ ألا وهو الخليفة «المأمون» الذي أرسل مبعوثيه للتنقيب عن المخطوطات اليونانية في كل من أرجاء سوريا وبيزنطة وأرمينيا وإحضارها إلى بغداد، ومن ثم فقد انكبّ العرب على ترجمة هذه الكنوز اليونانية إلى لغتهم العربية التي كانت اللغة العالمية للإمبراطورية الإسلامية، وهنا تجدر الإشارة إلى أن هذه الكنوز اليونانية قد دُفنت بغرابة تحت وطأة الاستبداد اللاهوتي والحضارة العقيمة غير المثمرة في بيزنطة.

ولم تكن عملية نقل العلوم اليونانية إلى المصطلحات العربية والتي كانت إلى حد ما بدائية بالأمر الهّين، إذ كانت العربية قد وهبت نفسها بالكلية لخدمة الشعر

والخطابة، ولذلك كان من اللازم إيجاد مصطلحات فنية جديدة ومواتية لنقل أفكار هذا العلم الجديد وقد تمكن العرب بدافع التوصل إلى آلية تنقل بها الأفكار العلمية والدينية في الوقت ذاته من إيجاد قوة تعبيرية تعد أعظم وأكثر تنوعًا من أي لغة أخرى في ذاك الوقت.

obeikan.com

obeikan.com

5

أضحت بغداد الآن المركز الرئيس للتعليم في العالم، ولذا فقد توجه إليها العلماء زرافات وفرادى من جميع أنحاء الإمبراطورية الإسلامية، حيث كان يتوافر على أرضها أعظم الفرص وأجزل الأُعطيات والمنح، وقد أدلت كل حضارت العالم القديمة من الإغريقية والفارسية والهندوسية والمصرية بدلوها في أن تصبح حضارة الإسلام على وجه السرعة حضارة عالمية مزدهرة وكانت هذه الفترة عن حق فترة نشاط عظيمة مشابهة لتلك الفترة من الزمان التي ساهمت جزئيًّا فيما بعد أن تحث أوروبا لكي تصل إلى نهضتها، وحقًا كانت تلك الفترة فترة كشوفات علمية وتقدُم ودراية كاملة وسريعة بكافة العلوم والتكنولوجيا التي كانت سائدةً في في الماضي والحاضر، حتى الصين والتي تبعد عن بغداد قد أدْلت بدلْوها عن طريق سمرقند بهذا الاختراع – فن صناعة الورق- والذي يُعد عاملاً رئيسًا في تقدم التعليم والحضارات في كل أنحاء العالم.

قام الخليفة «المأمون» بإنشاء ما يعرف بـ «بيت الحكمة» الذي يعتبره الكثيرون من

دارسي التاريخ في العالم أول جامعة حديثة في العالم، وذلك لكي يقوم بتنسيق عمل مترجميه بصورة أفضل، وقد ضم هذا البيت بين جنباته العديد من الخدمات حيث عمل كمكتبة وأكاديمية علمية إلى جانب كونه مركزًا للترجمة، وسرعان ما حَذَت عواصم إسلامية رائدة مثل القاهرة وفاس وسمرقند وقرطبة حذْو بغداد في إنشاء بيوتٍ مماثلة.

وإلى جانب هذا، فقد شيّد «المأمون» المراصد الفلكية، كما تجدر الإشارة إلى أن علماء الرياضيات في عهده قد تمكنوا من تقدير محيط الكرة الأرضية بحوالى 25000 ميلاً، كان اليونانيون قد خمنوا فى عام 200 قبل الميلاد أن الأرض مستديرة الشكل غير أن الفضل يرجع للعرب في إثبات هذه الفكرة عمليًا.

obeikan.com

6

أظهر العرب تصميمًا عمليًا على إعادة إحياء هذه العلوم المنسية والمهملة في العالم والتوسع فيها، وكان الخليفة «المأمون» خير مثال على ذلك، وهنا يجدر القول أن الحماسة المتَّقدة أوارها في صدر «المأمون» تجاه التعليم التجريدي لم تُقلل على الجانب الآخر من اهتمامه بتحقيق الرخاء للقروي البسيط- هذا الإنسان الذي يحمل المعول وعلى كتفيه تقوم الحضارات - وكان هذا الصنيع جراء إدراك «المأمون» التام لأهمية التربة والفلاحة كونهما مصدر دخل قومي وإحدى الوسائل لتحقيق الرخاء والسعادة لجموع الناس.

ومن ثم، فقد تم ترميم المزارع التي ولى أصحابها ظهورهم لها خلال فترة الحرب الضروس بين بلاد الفرس وروما بصورة تدريجية، كما تم إعادة بناء القرى المتهدمة في هذه الفترة أيضًا، وكان من جراء إعادة هيكلة نظام الري أن حقق وداي دجلة والفرات الخصيب إنتاجًا وفيرًا في التمور والمشمش والخوخ والبرقوق والتين والعنب والزيتون واللوز، كما تم زيادة الإنتاج من القمح والأرز لتلبية جميع

obeikan.com

الاحتياجات، وبالإضافة إلى ذلك أُنشئت مصانع قصب السكر وشُيِّدت معامل التكرير بجوارها، كما تمت زراعة الباذنجان والفجل والخيار والبقوليات، أما بالنسبة للفاكهة الأشهى من هذا كله وهي البرتقال، فقد تمت زراعته أيضًا في بغداد، ومن المحتمل أن يكون قد نقل إليها من بلاد فارس.

أضحى فن زراعة الأشجار المثمرة والخضر والنباتات الزينية مزهرًا وعلى درجة من التقدم في كل الولايات الإسلامية، وأخذ العالم آنها يفتش عن أنواع جديدة تصلح للزراعة، كما تم استخدام فن الري بشئ من الحرفية المبهرة لزيادة الإنتاج، وغَدَت الزهور مزروعة حتى في البيوت الصغيرة، أما الخلفاء وحاشيتهم فكان بيوتهم مزينة بحدائق غناء تجري فيها جداول الماء حيث كانوا يقضون فيها أوقات فراغهم.

ولم يكن الرخاء والحضارة حكرًا على الطبقة الثرية فحسب، حيث أن تلك الحضارة الإسلامية التي كانت آخذةً في الازدهار بشكل سريع قد قامت على أسسٍ عريضة تضع نصب عينيها تحقيق الرفاهية لعامة الشعب أيضًا، وذلك اتفاقًا مع منظور الأخوة الإسلامية التى أرسى قواعدها النبى محمد وأيَّدها القرآن الكريم وطبَّقها كل من سبق من الخلفاء.

ويبدو أن تحقيق رفاهية جموع الناس وسعادتهم لم تكن ذات اعتبار أو أهمية كبيرة في ظل القرون السابقة؛ وذلك على النقيض من هذا الاعتبار والاهتمام البالغ

الذي أوْلاه الإسلام لذلك، حيث أضفى النمط الاجتماعي الاقتصادي على صعيدَيْ الحياة الدينية والسياسية نوعًا ما من الوحدة الفاعلة على كل الأنشطة التي يقوم بها المسلمون، والحق يُقال أنه لا يمكن إدراك كُنْه هذه النهضة الفائقة فى الحضارة الإسلامية العربية بدون أن نأخذ بعين الاعتبار عامل الوحدة هذا والذي بدأ أول مابدأ على الجانب الروحي ومن ثم تغلغل في كل مناحي الحياة الدنيوية.

امتدَح القرآن الكريم صفة الكرم واعتبرها واحدة من أعظم القيم الروحية؛ واعتبَر الزكاة أحد أركان الإسلام الخمسة التي عليها قام الإسلام، فقد كان لزامًا على الطبقة الحاكمة والتجار الأثرياء أن يقوموا بتوزيع جزء كبير من ثروتهم على عامة الشعب.

ولحُسن حظ طبقة الفلاحين، لم يكن للعرب الذين أضحوا أثرياء بفضل التجارة رغبة كبيرة في تملك مساحات شاسعة من الأراضي، إذ كان من اليسير آنَها أن يحوذَ المرء ثروات طائلة؛ ولذا لم يكن من الضروري أن يُضطهد ويُقهر هذا الفلاح الكادح من أجل أن يحقق المرء مُبتغاه من الرفاهية؛ هذا الفلاح الذى لم يقهره تحت حكم الإسلام أحدٌ جراء امتلاكه قطعة أرض صغيرة تجسيدًا للمثال الإسرائيلي والذى ينص أنه يجب على كل إنسان «أن يجلس تحت شجرة التين الخاصة به.»

هذا وقد تضافرت كل هذه العوامل في إيجاد نمط وأنموذج أكثر ازدهارًا من الناحية الإقتصادية وأكثر تناغُمًا من نظيره الذي كان قائمًا قبل مجيء الإسلام،

ومما يشهد على ذلك حالة الرضا التي سادت جموع الناس خلال القرون الأولى من الحكم الإسلامي التي تجسدت عملياً في أن كل من دول الشرق الأوسط وبلاد فارس بالإضافة إلى نسبة تسعين بالمائة من مسيحي مصر جنبًا إلى جنبٍ مع كل أهل شمال أفريقيا قد اعتنقوا الدين الإسلامي طواعية منهم إذ لم يسجل التاريخ أنه قد أُجبر أحد على دخول الإسلام.

obeikan.com

7

حَذَا الأمراء في كل من القاهرة وفاس وقرطبة وبلاد الفرس وبخارى وسمرقند حذْو الخليفة «المأمون» والذي شجع على إعلاء راية التقدم الحضاري في بغداد.

وقد تم إنشاء المكتبات والجامعات وشيدت المدارس ليرتادها عامة الشعب في كل أرجاء هذه المراكز الإسلامية، كما تم إعلاء شأن التعليم والثقافة بدرجةٍ كبيرةٍ وقد كان من جراء جريان لغة واحدة على ألسنة الجميع أن استطاع العلماء التنقل والترحال من مكان إلى آخر بحثًا عن فرص العمل، ويجدر القول أن تبادل الأفكار بصفة مستمرة قد أفضى إلى تنشيط المراكز الثقافية الإسلامية حيث لم تلبث الاكتشافات والإنجازات العلمية أن تظهر في مكان ما إلا وتنتقل إلى آخر.

كان علم الفلك واحدًا من هذه العلوم الإغريقية التى عمل العرب على إحيائها؛ حيث أضافوا إليه بقدر ما نقلوه عن الإغريق وبالإضافة إلى علم الفلك، أخذ المسلمون عن الإغريق علم الهندسة المستوية والذي أضافوا إليه ضربًا آخر من الهندسة هي

الهندسة التحليلية، وعلاوة على ذلك أسهم العرب بشكلٍ كبيرٍ في إرساء قواعد علم حساب المثلثات بفرعيه المستوي والكروي؛ أما علم الجبر الذي يُعرف باشتقاقاته فإنه يدين بالفضل للعلوم والثقافة العربية، بيّد أن أعظم الإسهامات العربية قاطبة في علم الرياضيات تتجلى في النظام العشري والذي نقله العرب من الهند ثم طوّروه بصورة كبيرة.

وابتكر العرب البوصلة اعتمادًا على الإسهامات الصينية السابقة، وقد مدت البوصلة يد العون للعرب ليس فقط على ركوب أمواج البحر الأبيض المتوسط حيث إنها قد مكنتهم من الإبحار بعيدًا داخل مياه المحيط الأطلنطي، وكان أيضًا بالاعتماد على الصين أن قام العرب بابتكار هذا الاختراع الذي هز أرجاء العالم حينها وهو «البارود» الذي عمل العرب على تطويره والتوسع في استخدامه حيث اقتصر استخدام الصينيين له في تكريم موّتاهم، ويروي التاريخ أن أحد المخترعين العرب كان قد أدرك فكرة استخدام هذه المادة والتي حسّن العرب قدرتها على التفجير في نوع ما من المدافع المطورة؛ هذه المدافع التي تعد الآن رائدة المدفعية الحديثة.

أما علم الكيمياء، فقد طوّره العرب اعتمادًا على ممارسة القدماء للكيمياء، وقد تجاوز العرب في أبحاثهم حاجز عدم التطبيق إذ قاموا عمليًّا وبالتجربة بمحاولة تحويل المعادن قليلة القيمة إلى ذهب وفي الحقيقة، فقد قام هؤلاء العلماء العرب

باكتشافات عظيمة والتي كان لها أكبر الأثر في تحسين ثروات المسلمين والمحافظة على صحتهم.

وكان من جراء تطبيق هذه المكتشفات الحديثة في علم الكيمياء من قبل الحرفيين العرب أن أضحوا رواد العالم في صناعة المعادن، ويشهد لهذا أن ظلت أجود السيوف وأفضل الزخارف في العالم تأتي لأوروبا من دمشق وبغداد وقرطبة، وهنا تجدر الإشارة أن كلمة (Damascene) والتي تعني زخرفة الأعمال المعدنية تخبرنا بنشأة هذا الفن في دمشق.

ويُعد استخدام الكيمياء في العلوم الطبية من قِبَل العرب الأمر الأكثر أهمية بالنسبة للعالم، ويستحق العرب عن جدارةٍ أن يطلَق عليهم مؤسسو علم الكيمياء الطبية؛ حيث أنهم إلى جانب الاكتشافات العظيمة التي قاموا بها في مجال الاستخدام العلاجي للعقاقير والتي استخدموها في علاج الأمراض الباطنية فإنهم قد أنشئوا أول كلية (مدرسة) للصيدلة في العالم بأسْره.

أما فيما يتعلق بفن العلاج والذي نقله العرب عن الإغريق والمصريين والفارسيين والهندوس، فإنهم قد طوّروه وبلغوا فيه الغاية لدرجة أن الإسلام بدون مراء قد حاز قصب السبْق فيه، حيث بذل الأطباء المسلمون الذين كانوا عن حق نعم العلماء الجهد وراء معرفة مصادر الأمراض وكيفية تطورها، وعلاوة على هذا، فقد قام الأطباء المسلمون للمرة الأولى في التاريخ بتطبيق الملاحظة الطبية (السريرية)

العلمية.

obeikan.com

8

بلغ مجد الحضارة الإسلامية ذُراه في الفترة من عام 800 م إلى عام 1100 م وهي الحقبة من الزمان التي شهدت انحطاط الحضارة الأوروبية لأدنى مستوياتها، فبينما كان المسلمون ينعمون بمستوى معيشيّ عام مماثل لنظيره في الحضارة اليونانية- الرومانية إن لم يكن يفوقه في المستوى كانت حياة الأوربيين أشبه بحياة الهمج غير المتحضرين الذين قبعوا تحت النظم الإقطاعية.

استحقت هذه القرون في تاريخ أوروبا أن يطلق عليها بجدارة «عصور الظلام»، إذ ظلت الكنيسة وحدها تحمل مشعل التعليم وسط هذا الركام الذي خلفته حشود القوط الهمجية وقد استغرقت أوروبا اللاتينية من الزمان قرونًا كي تتمكن من هضم واستيعاب هذه الجموع البربرية غير المتحضرة حتى تجعل منهم بنيانًا وكيانًا قويًا لديه القدرة على إحداث التقدم.

ومن عجائب دراما التاريخ أنه في الوقت الذي كانت فيه أوروبا تخرج من بوتقة

الهبوط والانحدار في غياهب الظلمات جراء اتصالها مع الحضارة الإسلامية في كل من صقلية وأسبانيا وأيضًا عن طريق الحملات الصليبية، كانت الحضارة الإسلامية تشق طريقها نحو الانحدار الذي قادها إلى ضباب الغموض والذي كانت قد انتشلت منه أوروبا.

obeikan.com

9

وكما كانت بغداد أول مركز إسلامي يشهد نهضة وازدهارًا، كانت كذلك أول مدينة تسقط في غياهب الانحطاط والذي بَدَا ملازمًا للنجاح لا ينفك عنه، فعلى غرار روما والتي أفضى بها فساد الترف وتناحر القوى السياسية على الاستئثار بالسلطة إلى الانحدار إلى الهاوية، فإن العدل الذي كان سمة مميزة لحكم الخلفاء المسلمين الأوائل قد غَدَا نظامًا غير عادل يفرض الضرائب الباهظة وحكومات تتسم بالفساد.

لقد خمدت جذوة الحماسة العسكرية التي كانت سمة مميزة للفاتحين العرب لدرجة أنهم قد طلبوا العون العسكري من المرتزقة الأجانب، فقد حدث في مطلع عام 940 م أن قام رئيس الحرس الملكي في حينها والذي كان مكونًا من جماعة من هؤلاء المرتزقة باغتصاب السلطة من الخليفة الراضي، وهو الأمر الذي حَدَا بالمؤرخين العرب ليعتبروه آخر الخلفاء الفعليين لبغداد.

وبعد أن عاشت البلاد لنحو قرن ونصف القرن من الزمان في الفوضى تحت الحكم العسكري لهذه الأسرة، تولى الأتراك السلاجقة مقاليد الحكم بعد أن قام أحد المتناحرين على الخلافة بتدعيمهم للوصول للحكم فصارت الخلافة تحت أيدهم في نهاية المطاف، وكان هؤلاء السلاجقة الذين أطلقوا على أنفسهم لقب «السلاطين» أُميين غير متعلمين، بيْد أنهم كانوا يحسنون تصريف الأمور كحكام

إلى جانب قدرتهم المتميزة على الحصول على الدعم والعون من الشعوب الأكثر تحضرًا والتي خضعت لحكمهم، وقد اعتنق هؤلاء السلاجقة دين العرب (الإسلام).

وهنا يجدر القول أن هؤلاء السلاجقة هم الذين عُرِفوا في الأوساط الأوروبية باسم المسلمين والتي دارت رحى الحرب بينهم وبين الصليبين وقد اتخذهم «صلاح الدين» جندًا له فحَازَ بذلك شهرةً خالدة على مر العصور.

وقد حدث فى عام 1252 م أن تلقت الحضارة الإسلامية، ممثلة في بغداد، ضربة قاصمة حين وقعت المدينة بين أيدي حشود المغول بقيادة «هولاكو» والذين لم يتركوا في مدينة «الأف ليلة وليلة» أخضرًا ولا يابسًا إلا أتوا عليه وغطت ألسنة النيران كافة أرجاء المدينة وتم القضاء على معظم سكانها البالغ تعدادهم حينها 200،000 نسمة، إضافة إلى تدمير مكتبتها التي كانت تحوي نحو 400،000 كتاب، بيْد أن الأمر الأدهى والأمَرّ من ذلك قد تمثل في تدمير نظام الري والذي طالته يد الإهمال في وقت لاحق؛ هذا الإهمال الذي تسبب في تحويل هذه الأراضي المثمرة في منطقة الهلال الخصيب إلى مستنقعات تعلوها الأوبئة، وهو الأمر الذي لا يزال قائمًا إلى وقتنا هذا.

كانت نفس هذه الحشود من المغول قد طمست في وقت سابق معالم الحضارة الإسلامية في كل من بُخارى وسمرقند وبلخ وهراة (بأفغانستان) وغيرها من المدن التي تقع وراء نهر جيحون، ومن ثم فقد عاشت المنطقة الشرقية من الإمبراطورية

الإسلامية في فوضى عارمة ردهًا من الزمان، وعندما حل السلام والنظام مرة أخرى ربوع منطقة الشرق الأوسط كانت المنطقة تدين بالسيادة لفرع آخر من الأتراك هم العثمانيون والذين اعتنقوا الإسلام كسابقيهم، وكان العثمانيون يحسنون تصريف الأمور العسكرية والسياسية غير أنه لم يكن بحوزتهم المقومات الرئيسية التي تقوم عليها الحضارات والتي كانت لدى سابقيهم من الأجناس المتحضرة في منطقة الشرق الأوسط.

obeikan.com

obeikan.com

10

عندما رأى المسلمون العرب ما آلت إليه حضارتهم المتقدمة من انحطاط تاريخي، فإنهم قد ألقوا باللائمة على تلك الغزوات التي قامت بها هذه الأجناس غير المتحضرة، تماما كما أُلقي باللائمة من قبل على القوط الغربيين في سقوط روما من على سلم المجد.

ولكن السبب وراء كل حالات الانحطاط الحضاري كان أكثر تأصلاً بالداخل حيث الانحطاط والتفسخ الأخلاقي والروحي الناجم عن توافر الثروات الوخيمة ووسائل الترف والسعي للحصول على المتعة، وكان الانحلال الجنسي جنبًا إلى جنبٍ مع الانغماس في الملذات قد أضعفا مكانة الأسر الحاكمة في بلاد الإسلام، وبالإضافة إلى هذا فقد كان للإبقاء على عدد كبير من الحريم كسراري وجواري أكبر الأثر في أن سقط ذوو الثراء في آتون فاحشة اللواط.

وكانت عودة مذهب «الفردانية» (أي مصلحة الفرد تعلُو مصلحة الجميع) من جديد

بين صفوف المسلمين- وهي السمة التي امتاز بها العرب- واحدة من الأسباب التي أدت إلى إضعاف الخلافة ليس فقط في بغداد بل وفي كل المراكز الإسلامية الأخرى، وقد كان الحكام المسلمون في فترة الفتح الإسلامي من القوة بما يكفي للسيطرة على هذه النزعة الانشقاقية لفترة من الزمان حيث غرسوا في صفوف جنودهم ما يكفي من الشعور بوحدة الصف، وهو الأمر الذي عزى بالإمبراطورية الإسلامية أن تحقق تقدمًا ملحوظًا على جانبي الرخاء والفنون.

غير أنه في ذلك الوقت من الزمان بَدَا الإسلام غير قادر على بسط نفوذه على مطامع سلالات الحكام والذين تنافسوا وتناحروا على السلطة؛ هذه المطامع التي أزكى نارها وأشعل أوراها كثرة الزوجات والخلائل اللائي اتخذَهُن الحكام، وكانت روح الجسارة والجرأة التي قد مكنت العرب فيما مضى من السيطرة على نصف العالم المعروف حينها قد انقلبت عليهم فزكى الصراع بينهم وتأجج.

وكان اتساع رقعة الدولة الإسلامية أحد الأسباب الأخرى التي أثرت سلبًا على استقرار الدولة العربية، حيث كان عدد العرب كافٍ لتشكيل الجهاز الإداري للدولة وحسب؛ أما السكان الأصليين، فقد كانوا يمثلون الأغلبية في البلاد التي فتحها العرب، وهنا تجدر الإشارة إلى أنه لو لم يتحد هؤلاء السكان الأصليون مع العرب جراء اعتناقهم لدين الإسلام لتفلتوا من عقال الإسلام في فترةٍ وجيزةٍ من الزمان، وهو ما قامت به فارس بالفعل حيث هجرت العربية وأدارت ظهرها لكل ما له علاقة

بالإسلام في غضون قرون قليلة.

وعلى الرغم من أُفُول نجم الحضارة الإسلامية وحالة التخلف التي تعاني منها معظم الدول الإسلامية الآن إلا أن الإسلام لا يزال قوة لها تأثيرها في العالم، ولذا فإن المسلمين المستنيرين يبذلون قصارى جهدهم لكي يعيدوا للإسلام صفاءه وبساطته، والحق يُقال أن الإسلام في حد ذاته لم يكن أبدًا بأي حال من الأحوال معاديًا للعلم والتقدم، وهو الأمر الذي يؤكد عليه هؤلاء العلماء من المسلمين مرارًا وتكرارًا جنبًا إلى جنبٍ مع القرآن والحديث والتاريخ، وهنا وعند هذا الحد يطرأ السؤال الذي يشغل بال الأتقياء من المسلمين اليوم وهو» كيف يمكن استعادة هذا الماضي الرائع للدين الإسلامي وحضارته؟!

obeikan.com